حضور اللون وضده في الرواية النسوية العربية رواية (جارية) انموذجا.

ا.م.دتغريد عبد الخالق هادي

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد

taghreedhadi76@gmail.com

الخلاصة :

رسمت لنا (منيرة سوار) في روايتها (جارية) الصادرة عن دار الاداب للنشر والتوزيع 2013؛ والحائزة على جائزة كتارا للرواية لعام (٢٠١٥) عن فئة الروايات المنشورة وذلك لطرحها قضية هامة في المجتمع البحريني بصفة خاصة والخليج العربي بشكل عام الا وهي مشكلة البشرة السوداء وتداعياتها الاجتماعية والنفسية فتصور لنا عالمها بانثيال شعوري جميل ودافئ لتنقل المتلقي الى عالم المرأة العربية المأزوم باسقاطات اجتماعية واقتصادية كبيرة ولقد دار البحث حول ثيمة مركزية في الرواية وهي حضور اللون وغيابه في حياة البطلة (جوري) ودلالات الالوان النفسية في شخصية البطلة; فضلا عن الاسقاطات التي أنشأت عالما خاصا بها لونته بالابيض والاسود

الكلمات المفتاحية : اللون ، العنصرية , الصراع ، المرأة ، الجندر .

Presence of color and its opposite in the Arab feminist novel

Novel (current) model.

Prof. Dr. Taghreed Abdel Khaleq Hadi

University of Baghdad / College of Education Ibn Rushd

taghredhadi76@gmail.com

.Keywords: colour, racism, conflict, women, gender

Abstract

She drew for us (Munira Sewar) in her novel (Jariah), published by Dar Al-Adab for Publishing and Distribution 2013; And the winner of the Katara Prize for arabic novel for the year (2015) in the category of published novels, for raising an important issue in Bahraini society in particular and the Arab Gulf in general, which is the problem of black skin and its social and psychological repercussions . She depicts her world with a beautiful and warm feeling, to transport the recipient to the world of Arab women, which is in crisis with great social and economic ramifications.

research revolved around a central theme in the novel, which is the presence and absence of color in the life of the heroine (Joura) and the psychological connotations of colors in the character of the heroine; As well as projections that created a world of their own, colored in black and white

Keywords: colour, racism, conflict, women, gender.

المقدمة :

لقد رسمت لنا (منيرة سوار) بأحساسها المرهف عالما معاشا عبر ثنائية اللون و ضده و تداعياته في المجتمع الخليجي خصوصا و العالم عموما .

فهي منيرة سوار المولودة عام (1975) و هي روائية بحرينية , حصلت على البكلوريوس في الادب الانكليزي من جامعة البحرين , عملت منذ تخرجها في تصميم الكرافيك و في ادارة العلاقات العامة و الاعلام و في وزارة التربية و التعليم البحرينية , صدرت روايتها الاولى (نساء المتعة) سنة 2008 , و فازت روايتها الثالثة (جارية) 2014 بجائزة كتارا للرواية العربية بعد عام من صدورها[1]

يستدعي منا موضوع البحث الوقوف على خط الكتابة النسوية في البحرين فلقد ظهر المنجز النسوي الخليجي بصورة عامة في منتصف القرن العشرين .

في العراق و السعودية ثم الكويت فالبحرين و الامارات العربية .

و لعل فن القصة هو الاسبق في الظهور في المشهد الثقافي البحريني لأنه يتمتع بتكنيك ابسط من الرواية لما في من نضج فني كبير يستدعي سنوات كثيرة من الخبرة و التمكن , و لقد اكد الباحث ابراهيم غلوم ذلك بقوله (لعل هذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن فن القصة لم يكن لينشأ و يبرز في مجتمع البحرين و الكويت ما لم يشهد هذا المجتمع تطورا او تغيرا في شبكة العلاقات القائمة في الحياة العامة بين الناس و ما لم تخلق في باطنه نطف كثيرة من عناصر الدراما التي تتوغل بها التحولات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية نحو طبيعة الانسان في الوطن العربي فتحدد سماته الانسانية و الفكرية و تجس نبض حياته و تصعد بها في سبيل رسم هوية هذا الانسان العربي و صياغة ميوله و معتقداته.)[2]

و لقد تمخضت الظروف التي عاشها البحرين عن جملة من الاتجاهات الواقعية التي مرت بها الرواية البحرينية ولاسيما النسوية منها فالظروف الاجتماعية و الاقتصادية و الاعراف و التقاليد للمجتمع الخليجي افرزت نمطا ناقدا من الرواية ناقما على الواقع المعاش ولاسيما الظواهر السلبية في المجتمع كزواج القاصرات , و العنف ضد المرأة و حرمانها من التعليم و غيرها.

فلقد اتفق النقاد على ان اول رواية بحرينية نسوية هي رواية (الحصار) 1983 للروائية فوزية رشيد التي ادرجت روايتها تحت افضل مائة رواية عربية خلال مائة عام و ذلك لأنها ترجمت الى ست لغات حية .

و التي تبعتها برواية فنية اخرى بعنوان (تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة) عام 1990 ثم تلتها عدة كاتبات كانت ابرزهن منيرة سوار بروايتها (نساء المتعة) عام 2008

ثم روايتها موضوع البحث (جارية) الفائزة بجائزة كتارا للرواية العربية عن فئة الروايات المنشورة للعام 2015 .

دلالة اللون الاسود في المجتمع العربي:

لقد توقفت بعض الدراسات الثقافية عند مشكلة اصحاب البشرة السوداء كجزء من اهتمامها بالهوية و بالآخر و ذلك لان اهتمام الدراسات الثقافية ينصب حول المرجعيات الاجتماعية و الثقافية لهوية الفرد ولاسيما العربي , و ما لدلالة التسمية من معان متعددة تشير اغلبها الى الظلام و التشاؤم و العتمة .

فعندما نطالع الجذر اللغوي للون الاسود و هو (س و د) نجد ان دلالته تتمحور حول اللون الاسود بمعانيه كافة :

(سود , السواد : نقيض البياض , سود , و ساد , و اسود , اسودادا , و اسواد , اسوديدادا , و هو اسود و الجمع سود و سودان .. و سودت الشيء اذ غيرت بياضه سوادا , و اسود الرجل و اسأد .. ولد له ولد اسود , و ساوده سوادا , لقيه في سواد الليل , و لسواد القوم معظمهم و سواد الناس عوامهم).[3]

نستنتج من المعاني اللغوية الآنفة الذكر للون الاسود انه لون العتمة و ان المرجعية اللغوية لهذا اللون تحيل الى اصحاب البشرة السوداء منذ القدم و التي تختص بدلالات ثقافية و اجتماعية كثيرة ولاسيما دلالة اللون على العبودية في الذاكرة الجمعية للمجتمع في العصر الجاهلي.

و لقد توقف بعض الباحثين عند الدلالات النفسية للون الاسود على الفرد و المجتمع فاللون الاسود (هو غياب كل لون , و هو الظل , و العتمة و الليل , اللامتناهي و السري و مثير الرهبة , رمز الفناء و الموت و الاسى في ثقافات شعوب كثيرة , و الاسود هو لون اعماق الارض و اعماق الماء , و هو رمز الشتاء و الماء و الفوضى لدى الصينيين و بعض الالهة الوثنية عند اليونان و الرومان)[4]

و لعل بتتبعنا للأثر التاريخي للون الاسود في الثقافة العربية ولاسيما الشعر لأن العرب امة شاعرة , فنجد مناظرة فكاهية لثلاثة شعراء بارزين هم (ابو العتاهية , دعبل الخزاعي , و ابي نؤاس) قد مروا بثلاث نسوة ترتدي كل واحدة منهن ثوبا بلون مختلف , فكان لحضور الحس الفكاهي لديهم اثرا في عمل مناظرة شعرية عن لون رداء كل واحدة منهن (الابيض ,و الاسود , و الاحمر) فأنشد ابو العتاهية يقول:

تبدى في ثياب من بياض بأجفان وألحاظ مراضِ

فقلتُ له:

عبرت ولم تسلم وإني منك بالتسليم راضِ

تبارك من كسا خديك وردا و خدك مثل اغصان الرياض

فقال :

نعم كساني الله حسنا ويخلق ما يشاء بلا اعتراضِ

فثوبي مثل ثغري مثل نحري بياضٌ في بياضٍ في بياضِ

وقال دعبل في الثوب الأسود :

تبدى في السواد فقلت بدراً تجلى في الظلام على العبادِ

فقلتُ له:

عبرت ولم تسلم وأشمت الحسود مع الأعادي

فقال:

نعم كساني الله حُسناً ويخلق ما يشاء بلا عنادِ

فثوبك مثل شعرك مثل حظي سوادٌ في سوادٍ في سواد

وقال أبو نواس في الثوب الأحمر :

تبدى في قميص الورد يسعى عذولي لا يلقب بالحبيب

فقلت من التعجب كيف هذا لقد أقبلت في زيٍ عجيب

أحمرة وجنتيك كستك هذا أم أنت صبغته بدم القلوب

فقال:

الشمس أهدت لي قميصا قريب اللون من شفق المغروب

فثوبي والمدام ولون خدي قريبٌ من قريبٍ من قريب[5]

يتضح لنا من النصوص الشعرية المتقدمة ان النسق الثقافي العربي غني , بالدلالات اللغوية ولاسيما الابيض و الاسود فيشير (دعبل الخزاعي) ان دلالة اللون الاسود في سوء الطالع (الحظ) كسواد شعر المرأة , و تشاؤم العرب من هذا اللون لدلالته على الحزن و الهم و الغم , و لقد استمرت هذه الدلالة الى يومنا هذا.

و لعل لمرجعيات اللون الاسود المرتبطة بالجواري و العبيد اثر في اختلاط المجتمع العربي باقوام عدة , فبدأت النظرة الى اصحاب البشرة السوداء نظرة عنصرية , تشير الى انحطاط المكانة الاجتماعية للفرد في المجتمع.

دلالة اللون الابيض:

ان اللون الابيض دلالات كثيرة و متنوعة , و ذات دلالات نفسية و اجتماعية جميلة على الاغلب فعند توقفنا عند الجذر اللغوي للأبيض و معناه في اللغة نجد معاجم اللغة العربية تصفه بقولها (الجمع بيض , المؤنث بيضاء .. وجه ابيض , نقي اللون من الكلف و السواد الشائن , اليد البيضاء , الانعام الاحسان .. هو ابيض: متهلل , نقي السريرة لا عيوب فيه , عرفته ابيض لا عيب فيه , الرقيق الابيض : مصطلح يطلق على الاشخاص من غير الجنس الاسود ، الذين يتاجر بهم في سبيل البغاء).[6]

أن المعاني للون الابيض اغلبها مشرقة و مفرحة و دالة على الخير و البشر و الاستحسان.

و لقد عد، اللون الابيض في الثقافة العربية لونا محببا الى النفس لدلالته الروحية و النفسية و البهيجة , فيدل على السلام , و النقاء لذا نرى النساء يرتدينه يوم زفافهن دلالة على العذرية و الطهارة , و لقد اتخذته الثقافة كثيرة لدلالته على النقاء , اما اثاره في الادب فلقد جسدته عدد من الروايات الشهيرة كرواية (بياض الثلج و هي رواية للأطفال المانية الاصل جمعها الاخوان غريم , مما ادى الى انتشارها ثم انتجت سينمائيا , كما توجد (رواية ذات الرداء الابيض) للكاتب الانكليزي ويلكي كولينز , و كتبت في عام 1859 و تعتبر من اولى الروايات البوليسية , و من الروايات ايضا رواية (الناب الابيض) للكاتب الاميركي جاك لندن التي نشرها عام 1906 , و كذلك رواية الطاعون الابيض للكاتب الاميركي فرانك هربرت التي نشرها عام 1983) [7].

نستنتج مما سبق حضور اللون الابيض في المنجز الروائي العالمي و ذلك لدلالته البراءة و الطهر و هما قضيتان منشودتان في اي مجتمع صالح , و كان حضوره في الاغلب مقتصر على جانب الخير و السلام على العكس من اللون الاسود الذي كان يرمز الشر و العنف و الحروب و لقد جسدت السينما العالمية ذلك ولاسيما في الافلام الموجهة للأطفال , و ذلك لأن الثقافة المرجعية للألوان متجذرة في مجتمعاتنا العربية بفعل مرجعيات اللون الثقافية ولاسيما في الادب و من ثم انتقاله الى الوسائط البصرية (السينما).

اشكالية اللون و الاسم :

تتخذ الروائية (منيرة سوار) من تقنية السرد بضمير المتكلم اطارا لبناء روايتها و ذلك لجذبنا الى عالمها الخفي , عالم الاسرار و المونولوجات المؤلمة مع النفس

و لقد اختارت الروائية هذه الوسيلة السردية لأنها الانسب في المحاكاة مع الواقع و هي تقنية سردية تحقق القدر الاكبر في القرب من الشخصية

يحمل عنوان الرواية اسم البطلة (جارية)التي يكتنز اسمها بالكثير من الدلالات اللونية و الاجتماعية , فالبطلة من اصحاب البشرة السوداء في مجتمع عربي بحريني , و ما لدلالة هذا اللون من التدني في مجتمع شرقي يحفل كثيرا بالمظاهر الشكلية , فلقد قدمت البطلة نفسها في الفصول الاخيرة من الرواية بقولها :

(اسمي الحقيقي هو جارية خالد سلمان الجوهري و كان المفروض تسموني شيخة لأني بنت عز و بنت ناس).[8]

بحرفية عالية و لغة سردية جيدة تقدم لنا (منيرة سوار) بطلتها ذات الاشكالية اللونية ولاسيما اشكالية الاسم الدال على العبودية و الوضاعة فالرواية تحكي قصة بطلة من اصول افريقية و نحن نعرف ان مهنة هؤلاء الافارقة هي العمل في منازل الاثرياء في الخليج كجزء من العمالة الوافدة و ما يتبعها من مشاكل ولاسيما عندما يصبح هناك تصاهر او علاقات غير شرعية خارج المنظومة الاجتماعية .

اما عن الثيمة الرئيسية التي تدور حولها رواية (جارية) هي تضادية الالوان في المجتمع الاماراتي (الابيض و الاسود) و ما ينتج عنها من ضياع للهوية داخل الوطن, و غربة الروح بين الاهل و تتحدث الرواية عن الفئة المنبوذة في المجتمع البحريني المتمثلة بالاولاد المولودين من امهات ذوات اصول كالافريقيات او الحبشيات او كما عرض في الروايات السابقة الامهات غير العربيات كالفلبينيات مثلا , و هذا يذكرنا برواية (ساق البامبو) لسعود السنعوسي , ان كاتب الرواية يحرص في العادة على ان يكون اسم البطل يدل على شخصيته داخل الرواية فيفصح عنها او عن نهايتها داخل المتن الروائي

او ان تكون ذات حمولة ثقافية تنبأ عن المستوى الاجتماعي للشخصية كأن تكون ارستقراطية او فقيرة او ان تنتمي لطبقة معينة في المجتمع , كما هو الحال مع اسم بطلة الرواية (جارية) التي يحمل اسمها دلالات كبيرة على حملها للون الاسود و على انتمائها للطبقة العاملة في المنازل كما هن الجواري في العصور الاسلامية السابقة في ايحاء من المؤلفة ان النظرة الاجتماعية نحو اصحاب البشرة السوداء موغلة في القدم منذ الجاهلية و حتى الوقت الحاضر.

و لقد اكد هذه الفرضية عدد من الروائيين كان من ابرزهم (امير تاج السر) فيقول :

(في الغالب يبذل الكاتب جهدا لجعل الاسماء مطابقة و ذات ايقاع و تكتب حسب الطبقة الاجتماعية للشخصية المحكي عنها و لن يستغرب احد اسم الزين في رواية (عرس الزين) للطيب صالح لأنه كان مطابقا , او وليد سعود في رواية جبرا ابراهيم جبرا الشهيرة لأنه بالفعل يشبه البطل في كل شيء)[9] .

فأختيار الاسم هو ضرورة لا غنى عنها لأي روائي ولابد ان يكون ذو حمولة ثقافية او اجتماعية , و ان يكون دال على الحدث الرئيسي في الرواية .

ان امتزاج اللون بالاسم يخلق انفصالا حادا بالهوية لدى البطلة , فجارية ذات الاصول الافريقية و ذات البشرة السوداء تكره اسمها و تحاول تغيير حاضرها بتغيير اسمها الى اسم اكثر تحضرا و رقياً (جوري) .

(ليس اسم جوري سوى حروف من كريستال تزين يافطة الصالون , اما اسمي الحقيقي المدون بحبر اسود على ورق رسمي , جارية عبد الله , عبد الله الذي لا يتحدثون عنه ابدا في بيتنا)[10] .

ان العلاقة الوطيدة بين البطلة و اسمها الجديد هو يمثل انفصالها عن الواقع المعاش الذي ترفضه و تحاول تغيير مفرداته اللفظية ولاسيما ان عملية رفض الواقع اللوني و ما يدل عليه من اشارات لفظية او اجتماعية هي عملية تدفع بالبطلة (جارية) الى الغضب من الحقيقة :

(صرخت صرخة انتفضت لها بيبي و جدي فزعا :

جوري , جوري .. قلت لك الف مرة اسمي جوري!)[11]

التكرار اللفظي الذي تستخدمه البطلة لاقناع اهلها بهذه الصفة الجديدة ما هي الا وسيلة بالية للخروج من واقعها المعاش , فأشكالية الاسم هي دلالة على الواقع , فهو ليس اسم اطلق اعتباطا , بل ان تغيير الاسم لا ينفي تغيير اللون , فأصل الدلالة باق لامحالة , فالماضي يطل بوجهه عبر نصوص الرواية على الحاضر و يؤكد حقيقة البطلة التي ترفضها و تتصور انها يمكن ان تنسلخ عنها , فالماضي تاريخ ولا يمكن تغييره لأنه جزء من الحاضر, فعند لقاء البطلة بأحدى زميلات الدراسة في صالونها مؤكدة حقيقة اسمها :

(هذه المرة , فاجئتني فائزة كليا بأنتزاع الجواب من بطن الماضي الذي جمعنا يوما.

اذ التفتت الي و عيناها يبرقان بذلك الوميض الماكر الذي لطالما نفرت منه قائلة:

اسمها .. اسمها جارية , و بعد التعديل اصبح جوري .)[12]

فحقيقتها لا تحتاج الى تغيير اسماء , فالانسان لا ينسلخ عن ماضيه ولا عن اصله و مهما حاول الانسلاخ , فتبقى له جذور باقية في مكان ما.

ولا تغيب القصدية في رمزية الاسماء و دلالتها على اللون في ذهن مؤلفة الرواية و نستنتج ذلك في نهاية الرواية بعد زواج (جارية) من (عبيد) و تقبلها لواقعها المعاش .

فنرى الروائية توظف الحالة الجديدة بالرواية عبر تقبل البطلة لأسمها و وقوفها عند واقعها و محاولة التأقلم معه لا رفضه , و ايجاد بدائل متخلية لا تعني شيئا , و لا تحقق سوى ضياع الشخصية بين هويتين :

(تذكرني بشرتها الحنطية و شعرها الناعم الطويل بدلال . تقف قبالتي تماما و تبتسم لي بشفتيها الورديتين قائلة :

-هل انت الآنسة جوري , صاحبة الصالون

ارد على ابتسامتها بواحدة اكبر منها :

- اسمي السيدة جارية ... و انا صاحبة الصالون !)[13]

لقد حسمت الروائية امر البطلة في نهاية الرواية عبر وصولها للاستقرار النفسي و الاجتماعي , و انتمائها لاصولها السوداء و عدم خجلها من هذا الانتماء , فهنا حققت الروائية اتحاد اللون و الاسم مع ايجاد الهوية الضائعة بين امها و ابيها.

اشكالية اللون الاسود (البشرة السوداء)

ان غياب الاعتزاز بلون البشرة سواء كان اسودا ام ابيضا هو اشكالية طرحتها رواية (جارية) كثيمة اساسية ولاسيما ان بطلة الرواية شابة مرهفة الاحساس عانت من نظرة المجتمع البحريني الدونية لها منذ طفولتها بسبب سواد بشرتها و هذا نتاج تراكمات المرجعيات الثقافية لدى العرب نحو اللون الاسود المرتبط بالعبيد في الجاهلية فأن (الثقافة العربية تحط من قدر اصحاب البشرة السوداء و تعتبرهم عبيدا , و ترى في اللون الاسود رمزا للتشاؤم في الطيور و الدواب و البشر و مرادفا للبؤس و الشقاء و علامة على دونية الحسب و وضاعة النسب و انحطاط المكانة)[14]

فالمنظومة الاجتماعية تعمل على خلق نظرة سلبية نحو الآخر الاسود الموجود في المجتمع ولا تنظر اليه كشريك في الحياة بقدر رؤيتها المتعالية الفوقية.

ان اشكالية اللون الاسود تتحقق بشكل مكثف داخل الرواية (جارية) فلقد أسست البناء السردي للرواية على ثنائية صراع الاسود مع الابيض في المجتمع البحريني متخذه من بطلتها مثالا لهذه القضية الانسانية الشائكة , فتنقل لنا (جوري) ما حدث لها في الايام الاولى في المدرسة و عدم تقبل الطالبات لها :

(كسرب جراد تجمع حولي يتآكلني من كل الجهات , من يدي, من ذراعي , من رأسي , من بطني , من قدمي , من وجهي , من ظهري

- ايتها السوداء , ما الذي اتى بك الى فصلنا؟
- اطلبي من المعلمة ان تنقلك الى فصل اخر , و الا سنجبرك على تركه بالقوة
- هههههه , هذه خادمتنا الجديدة يا بنات
- اياك ان تلمسيني كي لا توسخيني بلونك الاسود

كفأر مذعور اجفلت من زميلاتي , ((ما بالهن يعاملنني بهذه الطريقة؟ ما شأنهن بلوني ؟ هن ايضا ملونات مثلي ! بعضهن بلون ابيض .. و اخريات بلون بني , ما الذي يزعجهن بلوني؟ هل يفترض ان اكون بلا لون ؟)[15]

يجسد لنا حوار المنقول عبر السرد بضمير المتكلم حول الطفلة (جارية) المستعاد عبر تقنية الفلاش باك , و تصوير الحادثة من النظرة الاجتماعية للطالبات لاصحاب البشرة السوداء بأنهم العبيد و الخدم بحسب ما هو سائد و معروف في البحرين .

و هذه النظرة لم تقتصر على الخليج فقط بل هي نظرة لاحقت اصحاب البشرة السوداء في كل قارات العالم ولاسيما المهاجرين من القارة السمراء (افريقيا) , حتى بعد استقرارهم في هذه البلدان و اندماجهم مع النسيج الاجتماعي للبلد الجديد , و مما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة هو مساعي البيض لذلك , فيؤكد

(ايليس كاشمور) ذلك بقوله :

(قد تشكل جزء كبير من صورة البيض عن انفسهم كرد فعل لما يعتقدون ان السود ليسوا عليه , فاذا كان البيض يفهمون انهم الاسمى فكريا و ثقافيا , فحينئذ تدل صور السود على الجهل و البربرية . و كان من الضروري الحفاظ على هذه الافكار بغض النظر عن عدم دقتها الشديدة , و كانت احدى الطرق هي خلق سياق لا يكون فيه للسود خيار سوى العمل طبقا لتوقعات البيض .)[16]

فالمجتمعات المعتادة على الانغلاق العرقي و اللوني ترفض بشدة الانفتاح على اصحاب البشرة السوداء القادمون من القارة السمراء للعمل في بلدانهم , حتى مع تقادم السنين و حدوث ثورات لتحديد مصيرهم .

و لنا عبرة فيما حدث في اميركا و ثورة الزنوج السود لانتزاع حقوقهم المسلوبة من قبل البيض و مناهضتهم للتمييز العرقي العنصري ضدهم.

و يمكن رصد هذا الصراع داخل البطلة (جوري) عبر تصويرها للرفض القائم داخلها للون الاسود الذي تنتمي اليه و موازاة اللون البيض عبر تقنية السرد بضمير المتكلم التي توحي بأن الرواية ما هي الا مذكرات شابة سوداء في عالم البيض :

(اتأمل تقاطيعي , و انا اعيد رسمها مرة اخرى بالألوان لأضيف شيء من الحيوية لبشرتي السمراء , لم اخدع نفسي , بل هي صفحة شديدة السمار , مغرقة في السمار بشكل فج . نعم هذا هو لوني الحقيقي .. ارسم جفني من الاعلى بقلم الكحل السائل , قبل ان ازيد كثافة و طول رموشي بوضع (الماسكارا) غالبا ما الون وجنتي بلون الخوخ المعدني كي اضمن مرآه بالعين المجردة . اما شفتاي الممتلئتان فغالبا ما احرص على ابرازهما بلون احمر شفاه لافت يتأرجح بين الماروني و الاحمر الغزالي بهذه الخدعة استطيع صرف نظر الاخرين عن دكنة بشرتي , احتفظ بشعري قصيرا و ملمسا منذ سنوات طويلة , اضعه خلف اذني بعد تثبيته بمستحضر جل فتبدو اقراطي اكثر بروزا اتأمل نفسي في المرأة , ولا يعجبني في النهاية ما اراه , لا يعجبني ابدا ... اين انا من .. منهم , من الاخرين . اولئك الذين ولدوا ببشرة بيضاء .)[17]

ان الصراع الداخلي بين الابيض و الاسود لدى البطلة يبلغ ذروته في الشكل اولا و رفضها لهذه الملامح الافريقية التي تنتمي لها , و انغماسها في حبها للآخر (الابيض) و عدم اعتزازها بأصلها الاسود و محاولة تحسين الشكل بالتشبه بالابيض عبر مساحيق التجميل المتوفرة لديها.

ان التغيير الشكلي الذي تقوم به البطلة يفاقم مشكلتها الاصلية , فالصراع نفسي و داخلي فلابد ان ينعكس على الملامح و السلوك و نلحظ هذا الصراع يتجسد بعلاقتها الانسانية مع (هيثم) الابيض الذي ترى انها غير جديرة به بسبب سواد بشرتها

(ان هيثم ابيض البشرة , ناعم الشعر , تبعد تقاطيعه اميالا و اميالا عن ملامح القارة السمراء , حرام لمن هي مثلي ان تفكر بمثله , كيف يختلط الابيض و الاسود في اناء واحد؟ كيف تتمازج الدماء و الاعراق المتباينة ؟ ستعم الفوضى ان فكرت - تفكير- ان تعانق يدي السمراء يده البيضاء , ان تقبل شفتاي السمراوان شفتيه الورديتين ذات يوم , اي جنون هذا الذي يدفعني لتصور ان انال شرف مشاركته فراشه في يوم من الايام ! لا يجب ان يختلط الابيض بالاسود ابدا ابدا)[18]

ان الصراع اللوني المسيطر على شخصيات الرواية (جارية) ولاسيما البطلة ينسحب على علاقاتها العاطفية بالآخر (الابيض) فهيثم هو من يعمل معها في الصالون , ملامحه تغري اي فتاة بحبه , فجارية تعقد مقارنة شكلية لونية ما بين الاسود و ضده الابيض و تتسائل كيف يلتقيان , فالثنائية الضدية للون حاضرة على امتداد لغة السرد و مستوياته الثقافية و الدلالية عبر نسقه الثقافي المعلن.

ان اشكالية ضياع الهوية لذوي البشرة السوداء تكرسها الرواية بعمق ولاسيما مع توفر طرفي التجاذب (هيثم) الابيض من جهة و من الجهة الاخرى (عبيد) ابن خالة البطلة , الذي يحبها بصدق و تجده دائما بجانبها بدون ان تطلب حضوره , الا ان الاشكالية ما زالت قائمة في وعي البطلة اذا ان (عبيد) ينتمي لذوي البشرة السوداء , فقبولها به زوجا يعني قبولها بواقعها المقرون بلونها الذي تسعى الى تغييره بمستحضرات التجميل , يعني انها ستحمل اطفالها وزر البشرة السوداء , ان هذا الرفض الواضح اقنعتنا به (سوار) على امتداد الرواية :

(كاد قلبي ان يهوي من بين اضلعي عندما فوجئت بعبيد يطل علينا بسحنته الداكنة , تزين ثغره ابتسامة واسعة , حاسرة عن اسنانه الناصعة , هل يتقصد اثارتي بتلك الابتسامة؟ ام انه يعتقد بأني فعلا سأسعد بزيارته هذه . لولا وجودنا امام الملأ , لنصبت له مشنقة امام الباب الذي يقف عنده اللحظة و تخلصت منه الى الابد!)[19]

ان الرفض المتجذر لدى البطلة يطال (عبيد) الشخصية المحبة لها, لكنها تعترض سوى على لون بشرته, فهو مثلها يحمل الاعاقة نفسها برأيها , لهذا تمقته , ولكن المؤلفة مع تسارع الاحداث و تجاذب اطراف الرواية كشفت لنا ان (جوري) لم تجد من يتقبلها بعارها المزعوم و رفض المجتمع لها ولاسيما (الاب) الابيض الذي رفض ولادة طفلة سوداء من علاقة غير شرعية و اودعها الميتم , و هيثم الابيض الذي لا يكترث بها , فلم تجد سوى (عبيد) في حياتها كزوج :

(تتضاحك الخبيثتان و هما تتطلعان الي , يدفعني فضولي لدس رأسي بينهما لأجدهما تعرضان صورة تجمعني بهما يوم زفافي .)[20]

ان قرار البطلة بالاقتران ب(عبيد) هو ليس قرار اعتباطي بل هو قرار الاندماج مع الاسود و الذوبان فيه , هو تقبل عالمها و لونها الذي تنتمي اليه :

(بمجرد خروجي من بوابة مبنى السوق , اجد عبيد يلوح لي من المكان ذاته الذي تركته فيه, تغرورق عيناي بالدمع لمرآه. كم كان محقا عندما اصر على مرافقتي . انسى في تلك اللحظة جموع البشر المنتشرة كالنمل بين المحال , فلا ارى سوى تلك النقطة السوداء التي تلوح لي. اندفع نحوها بكل ما في لأذوب فيها تماما , تماما)[21]

ان قرار البطلة (جوري) بعد لقائها بابيها الذي انكرها هو قرار العودة الى الاصول , الى (عبيد) الذي كان حاضرا بطفولتها و شبابها معها , الذي يساعدها في قضيتها مع والدها , انه الانتماء اليه , لهذا اصبح (عبيد) جزء من عالمها .

اشكالية اللون و المكان :

ترسم لنا البطلة حياتها بالالوان و لاسيما باللون الابيض و الاسود .. فهي تعشق الابيض المختلف عنها , اللون الذي تتمنى ولادتها به , و تمقت الاسود الذي ولدت به , انه ليس لون فحسب , انه القيد , لذلك يمكن رصد حركة (جوري) بالمكان واللون :

(اشعر ان تلك الجذور اللعينة المنبثقة من ارض القارة السمراء تلتف حول عنقي و تخنقني. ليتني كنت انتمي لمكان اخر فتخرج جذوري من باطن ارض ثانية , كتلك التي قدم منها اجداد فائزة ذات يوم , ترى كيف تشعر بنفسها , كيف تتعامل مع بشرتها البيضاء و شعرها الذهبي اللامع ؟ قطعا هي لا تلجأ لاستخدام كريمات مبيضة للبشرة ولا يحتاج شعرها لكريمات التمليس و الفرد . كم ان الحياة سهلة على اصحاب البشرة البيضاء)[22]

ان قارة افريقيا هي الموطن , و هي المكان الذي انحدرت منه البطلة لكن كرهها له ليس بوصفه مكان , بل كسبب للون الذي يمنحه لسكانه فهي ضد الاسود , ولاسيما الاسود المكاني , فهو يتصف بالعدائية لها .

ان حب البطلة السمراء للابيض يتحول الى امنية صبغ كل الاماكن به : (بيني و بين الابيض علاقة عشق ازلية , لو كان بامكاني لسكب جالونات من هذا اللون الخرافي على كوكب الارض كي يصطبغ كليا بالبياض.)[23]

ان الثنائية الضدية لصراع الابيض و الاسود في نفس (جوري) يتحول الى عشق للامكنة التي يمكن صبغها بالابيض , فحتى البيت الذي يعد مكانا اليفا للشخصية , نلاحظ تشظي الهوية ما بين الالوان :

(و بيت جدي الذي عشت فيه عمرا طويلا تنشطر روحي شطرين , بين عالم من البياض احلم بالانصهار فيه , و عالم من السواد احلم بالانسلاخ عنه , تتشتت مشاعري بين نقيضين. بين جوري التي خلقتها و جارية التي خلقها القدر تنفصم هويتي بين امرأتين)[24]

ان المكان هنا(البيت) هو مكان للصراع ما بين الالوان داخل (البطلة) فالابيض يشدها و المكان من الجانب الاخر يشدها بسكانه

و لعل (الصالون) مكان عملها (جوري) هو المكان الاليف و هو الملجأ لذلك نرى غلبة الابيض عليه .

(لم يكن ممكنا ان يصطبغ حلمي الكبير بافتتاح صالون تجميل راق سوى باللون الابيض , الجدران كلها بيضاء , ناصعة البياض , ترتفع طقطقة حذائي على الارضية البورسلين التي اخترتها ايضا بلون ابيض مطفي [25])

نستنتج من ما سبق ان حضور المكان كان مرتبطا باللون ولاسيما اللون الابيض الذي لونت به البطلة عالمها في سبيل تغيير واقعها .وحققت ذلك عبر الصراع اللوني على امتداد احداث الرواية التي تشكل اضافة نوعية في الرواية الخليجية النسوية .

اهم النتائج:

لقد توقفنا في بحثنا عند اهم النصوص المكثفة لغويا و شعوريا لأبطال الرواية و استنتجنا عدد من الامور ابرزها :

1. اشكالية الاسم داخل الرواية ذو بعد رمزي يتمثل في اسم البطلة و عدد من الشخصيات الثانوية مثل (عبيد) و (فائزة) فكان اختيار الاسماء ذو دلالة على الحدث المركزي في الرواية.

2. ان اشكالية لون البشرة هي قضية عالمية في الادب , فقامت (منيرة سوار) بتصويرها في المجتمع الخليجي لكثرة العمالة الافريقية وخلقت بطلة مرهفة الاحساس و المشاعر و لقد رسمت لنا عالمها الخفي بلغة شعرية محببة .

3. صورت الروائية ضدية الالوان (الابيض و الاسود) عبر مفاصل حياة البطلة من خلال (لغة البطلة , الاماكن , الاشخاص) فكان اللون هو الثيمة الاساسية للرواية .

4. ان الصراع الداخلي للبطلة انتهى بقبولها اللون الاسود لون بشرتها و تقبلها لهويتها الام , و هذا ما جسدته احداث الرواية , لاسيما قبولها ب (عبيد).

5. صورت الروائية موضوعا مسكوتا عنه في المجتمع العربي , و صورت بحرفية عالية الشعور نحو الاسود المختلف , و هذا ما يفسر فوز الرواية بجائزة (كتارا) لعام 2015.

الهوامش :

1 موسوعة ويكبيديا , منيرة سوار
2 غلوم , ابراهيم : القصة القصيرة , الخليج العربي , بغداد , منشورات مطبعة الارشاد , 1981 , ط 1
3 ابن منظور, معجم لسان العرب, حرف السين الجزء السابع , الناشر: ادب الحوزة , مكان النشر: قم , طهران , 1984 :295
4 سبيتي فيديل , الابيض و الاسود , مجلة القافلة , العدد الخامس , مجلد 66, سبتمبر , اكتوبر.
5 المصدر نفسه, مجلة القافلة , العدد الخامس , مجلد 66, سبتمبر , اكتوبر.
6 العطية , مروان , معجم المعاني الجامع , تعريف معنى الابيض , نسخة محفوظة , 31 يوليو .
7 موسوعة ويكبيديا , مادة ابيض
8 منيرة سوار, رواية جارية , دار الآداب للنشر و التوزيع , بيروت , ط1 , عام 2014,: 167
9 السر , امير تاج , اسماء الشخصيات في الاعمال الروائية , مقال منشور في موقع الجزيرة نت
10 رواية جارية : 140
11 رواية جارية :14
12 رواية جارية: 138
13 رواية جارية: 183

14 الحاج منصور , قراءة نقدية لواقع السود في المجتمعات العربية , مقال منشور على موقع قناة الحرة , 16 اغسطس 2018
15 رواية جارية : 46
16 كاشمور , ايليس , صناعة الثقافة السوداء , ت احمد محمود , المشروع القومي للترجمة , منتديات سور الازبكية , مصر د.ت
: 272
17 رواية جارية : 26-27
18 رواية جارية : 44
19 جارية :92
20 جارية : 182
21 جارية : 179
22 جارية :135
23 جارية: 25
24 جارية : 79
25 جارية :32

قائمة المصادر و المراجع :

- ابن منظور, معجم لسان العرب, حرف السين الجزء السابع , الناشر: ادب الحوزة , مكان النشر: قم , طهران , 1984
- الحاج , منصور , قراءة لواقع السود في المجتمعات العربية , مقال منشور على موقع قناة الحرة , 16 اغسطس 2018
- السر , امير تاج , اسماء الشخصيات في الاعمال الروائية , مقال منشور في موقع الجزيرة نت
- العطية , مروان , معجم المعاني الجامع , تعريف معنى الابيض , نسخة محفوظة , 31 يوليو
- سبيتي فيديل , الابيض و الاسود , مجلة القافلة , العدد الخامس , مجلد 66, سبتمبر , اكتوبر
- غلوم , ابراهيم : القصة القصيرة , الخليج العربي , بغداد , منشورات مطبعة الارشاد , 1981 , ط 1
- كاشمور , ايليس , صناعة الثقافة السوداء , ت احمد محمود , المشروع القومي للترجمة , منتديات سور الازبكية , مصر د.ت
- موسوعة ويكبيديا , مادة ابيض

الروايات:

- جارية , دار الآداب للنشر و التوزيع , بيروت , ط 1 , 2014